المفهوم الديني للزمان
في الأديان السماوية الثلاثة الكبرى
" دراسة تحليلية مقارنة "

أ. د. صابر أبا زيد
أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف
وعميد كلية الآداب بأسوان الأسبق
جامعة جنوب الوادي - قنا

تقديم:

... يدور البحث حول عنوان المحور الثاني: هيرمينوطيقا الزمن ومقاربات في الفلسفة الإسلامية. وقد تناولت الموضوع تحت عنوان: " **المفهوم الديني للزمان في الأديان السماوية الثلاثة الكبرى–دراسة تحليلية مقارنة** ".

حيث إنني سأقوم بعرض مفهوم الزمان، ومشتقاته، ودلالاته، وتأويلاته من خلال نصوص التوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم بشكل مختصر، وطبقًا للمنهج التحليلي المقارن وسنقوم بتعريف مصطلح الهيرمينوطيقا، وأصل ودلالة الكلمة ومشتقاتها، وكذا تعريف الزمان، وبيان طبيعته، ودراسة المشكلات المتعلقة بالزمان، وتأويلاتها، وإثبات وجودها، والرد على دعاة انعدام الزمان. مع بيان الجانب التاريخي واللغوي لمفهوم الزمان مع توضيح دلالات الزمن في كتب الفلسفة والأدب، وسنعرض لرؤية إخوان الصفا وخلان الوفا وأبي حيان التوحيدي للزمان في مقاربة في هيرمينوطيقا الزمن، وذلك كممثلين للفلسفة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، وسنوضح في الاستنتاج والنقد للنصوص والتعقيب والخاتمة ... كيف أن مفاهيم الماضي لابد وأن تبدو في ضوء الحاضر، وأن تتخذ مغزى جديدًا مع تقدم الزمن في المستقبل.

أولاً: تعريف المصطلحات:

١. تعريف مصطلح هيرمينوطيقا:

هيرمينوطيقا Hermeneutics أي علم التأويل (للفلسفة) أو التفسير، والهيرمينوطيقا هي المدرسة الفلسفية التي تشير لتطور النظريات التفسيرية، وفن دراسة وفهم النصوص في فقه اللغة واللاهوت والنقد الأدبي، ويستخدم مصطلح هيرمينوطيقا في الدراسات الدينية للدلالة على دراسة وتفسير النصوص الدينية، وفي الفلسفة هي المبدأ المثالي الذي من خلاله تكون فيه الحقائق الاجتماعية – وربما أيضًا (الحقائق الطبيعية) رموزًا أو نصوصًا، والتي بدورها يجب أن يتم تفسيرها بدلاً من وصفها أو إيضاحها بموضوعية.

وعن أصل ودلالة الكلمة نقول إن هذه الكلمة تحمل الكثير والكثير من التراث الدلالي، حيث تشير كلمة Hermeneutics في الفلسفة إلى الفرع الذي يدرس مبادئ التأويل والإدراك. فيما تحمل الكلمة ذاتها اسم نظرية معروفة في الميثودولوجيا " علم المناهج " في أسلوب تأويل النصوص المقدسة وتفسيرها – وهذا ما نحن بصدده – وبالأخص التوراة والإنجيل. ويعود أصل مصطلح الهيرمينوطيقا إلى الفعل اليوناني Hermeneueien والذي يعني (يفسر، يعلن، يوضح، يترجم).

وقد تم اشتقاق المصطلح أيضًا من اسم الإله اليوناني هيرمز، والذي نسبت له الإغريق أصل اللغة والكتابة، واعتبروه راعي الاتصال والتفاهم بين البشر، ومصطلح الهيرمينوطيقا مشتق من: Hermè وتعني القول، والتعبير، والتأويل، والتفسير، وكلها دلالات متقاربة من حيث الاتجاه نحو الإيضاح والكشف والبيان.

أما في علم اللاهوت – الذي يقابل علم الكلام في الفلسفة الإسلامية – فيعرف بكونه فن التأويل وترجمة الكتاب المقدس، والتأويل هو العلم الديني بالأصالة الذي يكون لُب الفلسفة (فلسفة الدين)، ويقوم عادة بمهمتين متمايزتين تمامًا:

الأولى: البحث عن الصحة التاريخية للنص المقدس عن طريق النقد التاريخي.

الثانية: فهم معنى النص عن طريق المبادئ اللغوية [١].

... وقضية التأويل من القضايا الهامة في تاريخ الفكر الإنساني بصفة عامة، والفكر الفلسفي بصفة خاصة، وفي الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام بصفة أخص، وذلك لارتباطها بالدين، والتدين، وإلالهيات [٢].

٢. تعريف الزمان وبيان طبيعته (رؤية تاريخية):

للزمن والزمان تعريفات متعددة وردت على ألسنة الفلاسفة والمفكرين والأدباء والعلماء واللغويين ... إلخ، ولو ألقينا نظرة سريعة على تعريفات الزمان عند مشاهير الفلاسفة والمفكرين منذ اليونان، فسنجد أن فترة ما قبل سقراط Socrates (٤٧٠ – ٣٩٩ ق.م) دار الجدل حول الصيرورة أو التغير في مقابل الكينونة أو الثبات، أي بين الفيلسوفين هيرقليطس Hereclitus (٥٤٠ – ٤٧٥ ق.م) وبارمنيدس Parmenides (٥٢٩ – ٤٧٤ ق.م) [٣] وقد اعتقد هيرقليطس أنه بذلك حل مشكلة الزمن ببيان أن التغير والصيرورة هما وحدهما الحقيقة، وأن

١- حسن حنفي – تأويل الظاهريات – الحالة الراهنة للمنهج الظاهري وتطبيقه في الظاهرة الدينية – مكتبة النافذة – طبعة أولى، سنة ٢٠١٦م، ص٣٨٤، وانظر أيضًا الخويلدي (زهير): محاورة بيون الأفلاطونية أو الينبوع الفلسفي الأول للهيرمينوطيقا– الحوار المتمدين.

httb://www.ahwar.org.com

أيضًا: ويكيبيديا – الموسوعة الحرة

٢- ولمزيد من التفاصيل حول معنى التأويل قديمًا وحديثًا والاشتقاق اللغوي في المعاجم اللغوية والقواميس الفلسفية واستعمالات القرآن الكريم والسُنَّة النبوية لها ... انظر في ذلك: صابر ابا زيد: علم الكلام الإسلامي " دراسة نقدية مقارنة " – سلسلة دراسات في الفكر الإسلامي (١) – دار الوفاء لدُنيا الطباعة والنشر – الطبعة الأولى – إسكندرية – ٢٠١٠م – من ص٨٧: ٩٢.

٣- محمد علي ابو ريان – الفلسفة أصولها ومبادئها – دار المعرفة الجامعية – إسكندرية – الطبعة الأولى – ١٩٧٩م – ص٢٤.

الثبات والاستمرار هما مجرد مظاهر، وكل شيء يبدو ساكنًا إنما يتضمن حركة مستمرة، وإذا توقفت هذه الحركة، فإن الكون يصبح لا شيء، وفي المقابل رفض كلٌ من: بارمنيدس وزينون الإيلي فكرة هيرقليطس أساسًا، وذهبا إلى أن الثبات والدوام هما الحقيقة، أما التحول، والحركة، والزمن، والتغير فهي أمور غير حقيقية، وقد وصل زينون في مغالطاته المشهورة عن الحركة إلى النتيجة نفسها، وهذا أمر حتمي طالما أن الحركة بالنسبة له تغير، والتغير هو الزمن[١].

ما نود أن نقوله إن بدايات الفهم الفلسفي للزمان ما قبل سقراط وحتى ما قبل أفلاطون كانت ذات طابع ميثولوجي Mithology، وأن هيرقليطس أثر في مفكري الإسلام، أما الأثر الظاهر له في العالم الإسلامي فهو فكرته عن التغير من ناحية، وما يتبع ذلك من فكرة الدور أو السنة الكبرى من ناحية أخرى، وكان التأثير الأوضح لهذه الفكرة في إخوان الصفا ورسائلهم كما سنرى.

والزمان عند انكسيماندريس هو الحاكم المتصرف، وهو أشبه بالقدر أو القانون بالنسبة لخروج الأشياء من اللامحدود وتكوينها عنه، ثم فسادها وانحلالها إليه في عدد أبدي لا ينتهي[٢]. وجاء اكسينوفان وطوّر فكرة اللامحدود أو الأول الأزلي بأن أعطاهُ فهمًا دينيًا (فكرة الله الواحد الأزلي).

وإننا في الحقيقة لا نجد معالجة خاصة للزمان كتصور مستقل أو مفهوم خاص وواضح من الفكر قبل سقراط، وحتى الفكر الميثولوجي لم يكن يجابه مشكله خاصة بالزمان كفكرة مستقلة كما سيحدث فيما بعد، فالزمان هو الوجود، وزمان الشيء هو وجوده سواء كان ذلك الموجود ساكنًا أم متحركًا.

الحقيقة أيضًا أن الإنسان في هذه الفترة (ما قبل سقراط) ينطلق في تصوره لعلاقة الوجود بالزمان أو البقاء ... من منطلق البداهة أو الحس المشترك Common Sense، وهذا ما حدا ببعض الفلاسفة من العصور الوسطى (المسيحية والإسلامية) من أمثال: القديس أوغسطين، وأفلوطين، وأبي زكريا الرازي الطبيب، وأبي بركات البغدادي وغيرهم بأن يشيروا إلي بداهة وجود الزمان، وعدم إمكان إنكار وجوده كما يذهب البعض[٣].

١- بخصوص حجج زينون الأربع في الحركة – انظر في ذلك: علي سامي النشار – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – دار المعارف – مصر – الطبعة الأولى – ١٩٦٩ – ج١ – ص١٣٣.

٢- حسام الدين الألوسي – الزمان في الفكر الدين والفلسفي القديم – مقال بمجلة عالم الفكر – المجلد الثامن – العدد الثاني – يوليو / سبتمبر – ١٩٧٧م – ص١٣٨.

٣- صابر أبا زيد – فكرة الزمان عند إخوان الصفا – " دراسة تحليلية نقدية "– تقديم د. عاطف العراقي – مكتبة مدبولي – الطبعة الأولى – ١٩٩٩م – ص١٣٥.

وإذا انتقلنا للفيلسوف **أفلاطون**Plato (٤٢٨ – ٣٤٧ ق.م)، فإننا نجد أنه من الصعب على الباحث أن يجد شيئًا محصلاً عن فكرة الزمان أسطوريًا وحتى عند فلاسفة ما قبل أفلاطون، وإن ما قيل في المكان يقال في الزمان، ولذلك فإن الفكرة المثيولوجية عن الزمان كأختها عن المكان (كيفية، ومجسمة، لا كمية ومجردة) إن الفكر المثيولوجي لا يعرف الزمان كبقاء متساوق، أو كتعاقب لحظات متماثلة الكيفية، فالإنسان الأول لا يعرف فكرة الزمان التي نستخدمها في الرياضيات والفيزياء اليوم، وإذا رجعنا إلى الفكر ما قبل الفلسفي عند اليونان نجد اهتمامًا بالزمان كقوة طبيعية إلهية شاركت جزئيًا حينًا، أو كان لها دور حينًا آخر في ظهور الأشياء كلها، ولكننا لا نجد تصورًا فلسفيًا أو تجريديًا لذلك، أي أن النقص هنا كما عند البابليين والمصريين القدماء، إلا أن التصور الإغريقي يبدو أكثر قربًا إلى التصور المشخص للزمان[١].

ويستحيل مناقشة فكرة الزمان عند أفلاطون بشكل مناسب دون أن نضعها داخل إطار نظريته الشاملة في الوجود، فإذا رجعنا إلى محاورة (فيدون) نجده يذكر أن الوجود خارج الزمان، إذ إن الصانع هو الذي يرتب الزمان [٢].

وما نود أن نقوله إن جوهر نظرة أفلاطون إلى الوجود هو أن الشيء العادي في خبراتنا يتألف من جزئين: **أحدهما**– الشكل أو المثال أو الجوهر، **والآخر** هو المادة أو فردية الشيء وتعبيره الحسي.

والزمان عند أفلاطون يحتل مكانة خاصة في محاورة طيماؤس Timaeus، حيث نرى مذهب أفلاطون وهو يعرض لنا فيها قصة أصل العالم بما في ذلك الزمان، وقد اختلف الشراح والدارسون حول النص الوارد في هذه المحاورة [٣]، وأفلاطون، بصرف النظر عن ذلك الاختلاف، يميز بين النموذج وبين الصورة التي هي شبيهة له.

وأخيرًا الزمان عند افلاطون ليس مدة وجود أي شيء (العماء أو الله مثلاً)، بل الحركة المنظمة، حركة الأفلاك والكواكب، وهذا بلا شك أحدث تأثيرات عميقة في فكر إخوان الصفا فيما بعد، وبالتالي في الفكر الديني، والنتيجة النهائية هي أن الزمان ومعناه عند أفلاطون –

١– حسان الدين الألوسي: الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم – مرجع سابق – ص١٣٨.

٢– أفلاطون – الأصول الأفلاطونية (فيدون) وكتاب التفاحة المنسوب لسقراط – ترجمة وتعليق وتحقيق علي سامي النشار وعباس الشربيني – دار المعارف – مصر – ١٩٦٤ – ص٢٣٩، وانظر أيضًا ابو ريان – الفلسفة أصولها ومبادئها – ص١٧١.

3– Plato: The Timaeus of Plato, Ed, R.D. Archer Hind N.Y. 1973. P.179.

وليس الدهر ومدة ما ليس في زمان – يتصل بالمتحركات، وهذه لها بداية في الصنع، وبالتالي فالزمان له بداية، وبدايته مع العالم.

أما الفيلسوف الكبير أرسطو Aristotles (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) فقد كان أكثر تحليلاً من كل سابقيه لفكرة الزمان، حيث اهتم بتعريفاته، وطبيعته، وخصائصه.

ومذهب أرسطو في الزمان واضح، وهو يخصص له المقالة الرابعة من السماع الطبيعي، فيبدأ بدراسة نقدية للزمان في نص هام: " ... الزمان بعض أجزائه قد كانت وانقضت، ويتركب الزمان من: ما منه لا متناه، وما هو دوري دائمًا، أما **الآن** فليس بجزء، وإن كان الزمان متجزئًا، وذلك أن الجزء قد يقدر الكل، وقد يجب أن يكون الكل مركبًا من أجزائه، والزمان ليس يظن به أنه مركب من الآنات، ومما يصعب الوقوف عليه هو أن الآن هو الذي يظهر أنه الفاصلة بين الماضي وبين المستقبل " [١].

وقد عرف أرسطو الزمان بأنه مقدار الحركة فيما يتعلق بالقبل والبعد، ومن هنا يمكن القول إن الزمان عند أرسطو وثيق الصلة بالحركة، والزمان لا يمكن أن يوجد بدون تغير، لأننا في حالة النوم العميق مثلاً الخالي من الأحلام لا ندري كليًا بمرور الزمن، وهنا نجد أرسطو يقول: " فقد ظهر أن الزمان ليس هو الحركة ولا فرق أن نقول حركة أو تغير، إلا أنه ليس أيضًا خلوًا من تغير، وذلك إن نحن شعرنا أو لم نشعر لم نظن أنه كان هناك زمان، كحال من يعتريهم النوم ولا يشعرون إذا انتبهوا من نومهم"[٢]، مثل قصة أهل الكهف في القرآن الكريم – كما سنرى في البعد الديني ونحن بصدد الحديث عن الزمان عند إخوان الصفا الذين تأثروا بشكل واضح بآراء أرسطو، وتعريفاته للزمان.

وخلاصة مذهب أرسطو في الزمان بالإضافة إلى ما ذكرناه، فإنه متصل بسبب اتصال الحركة، وإن الزمان والحركة عنده شيء واحد، وكل واحد منهم متصل.

وأخيرًا كما أن الزمان مقدار الحركة أو مقياس الحركة، فهو مقدار السكون لأن كل سكون في زمان، وذلك لأن الزمان ليس حركة، بل هو عدد الحركة (أو قياسها) وقد يجوز وجود الساكن في عدد الحركة.

١– أرسطو –كتاب الطبيعة (السماع الطبيعي) – ترجمة إسحاق بن حنين – مع شروح ابن السمح وابن عدي ومتى بن يونس – ج١ – تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مركز تحقيق التراث – ١٩٨٤ – المقالة الرابعة – ص٤٠٤.

٢– ارسطو – الطبيعة – السماع الطبيعي – المقالة الرابعة – مصدر سابق – ص٤١٤.

ثانيًا: الجانب اللغوي لمفهوم الزمان:

... بعد أن عرضنا لتعريفات الزمان من خلال الرؤية التاريخية، وكذا قمنا بتعريف مصطلح الهيرمينوطيقا ... نعود ونقول لقد كانت لمشكلة الزمان حظوة كبرى في التفاؤل والبحث في شتى مواقف الفلسفة والعلم، وإن أقصى ما يؤرق المرء هي تلك الديمومة الأبدية التي تشعره دائمًا بانقضاء لا محالة ... فتتبدى أمامه البداية كأول خطوة للنهاية ... فينتظر تلاشي وقع اللحظات، ويقف مبهورًا أمام انجراف تيارها المتلاحق المتدفق، ولذلك نود أن نقول إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يشعر شعورًا واعيًا بالزمن من ديمومته وسريانه وتدفقه، لأنه يشعر بالفقدان أثناء سريان الزمان، والزمن نفسه لا يفقد شيئًا من محتوياته أثناء سيره كما لا تجري عليه صفة التغير والتحول كما سنرى ... على الرغم من أنه يعبر عن الحركة الدائمة، ويرفض السكون التام.

... ولذا كانت تجربة الإنسان بالزمن تجربة أليمة، لأنها تشعره دائمًا بتناهيه وانقضائه، الأمر الذي أدى إلى أن يكون الشعور بالزمن عند مفكري اليونان قديمًا شعورًا تراجيديًا، وجدوه متمثلاً في القوى التي تسيطر على مصير الإنسان والكون، وجميع الكائنات والموجودات الطبيعية، وكذا عرف الفراعنة قديمًا أمور التوقيت، واهتموا بها لعوامل تتعلق بشئون حياتهم اليومية كالزراعة مثلاً، وهذا فرض عليهم الالتفات والنظر إلى التقلبات الجوية، كما أن الأعياد والأمور العقائدية جعلت رجال الدين والكهان يقومون بضبط الوقت اعتمادًا على الفلك والنجوم والأنواء، وهذا واضح في نقوش تماثيلهم، وجدران معابدهم، سواء الاهتمام بالشمس لدرجة التقديس، أو رسوم حبات السنبلة دليل النماء، أو غير ذلك.

ومن هنا لاقت مشكلة الزمان اهتمامًا كبيرًا في تاريخ الفكر الإنساني بصفة عامة، وتاريخ الفكر الفلسفي بصفة خاصة ... لا لأهمية المشكلة، ولكن باعتبار الزمن أقرب إلى النفس الإنسانية في أعماقها، سواء أكان ذلك تفسيرًا أم تأويلاً (هيرمينوطيقا).

... لقد حاول الإنسان خلال العصور المتعاقبة أن يسيطر جاهدًا على ما حوله من ظروف وأحداث ... وقدمت له التغيرات الدورية – كتعاقب الليل والنهار –وفصول السنة والدورة القمرية – إطارات مرجعية طبيعية يستطيع أن يحدد – بالرجوع إليها كوسيلة من وسائل القياس –مكان وموقع التغيرات الأخرى، وحاول العلماء والفلاسفة خلال آلاف السنين دراسة مدة الظواهر الدورية، وإيجاد علاقات بينها، ولايزال العلماء يحاولون اختراع أساليب وأجهزة أكثر دقة لقياس الزمان [١].

١– سيد محمد غنيم – مقالة بعنوان: مفهوم الزمن عند الطفل – ص٦٨ – مجلة عالم الفكر – العدد الثاني يوليو – سبتمبر ١٩٧٧م.

ولم يقتصر الأمر على المحاولات العلمية لدراسة الزمن، بل إن الفلاسفة منذ أيام اليونان الأقدمين كانت لهم نظرتهم إلى بُعد الزمن.

وقد تميزت معالجتهم لمفهوم الزمن بالتطورات المتناهية في التجربة والتأمل حول طبيعة وماهية هذا المفهوم، ولا يمكن بطبيعة الحال فصل تاريخ الدراسة الفلسفية لمفهوم الزمن عن تاريخ الفكر الإنساني بصفة عامة، وخاصة عند الفيلسوف أرسطو كما سبق القول. وسوف نجد صعوبة كبيرة في التحقق من المعنى الأصلي لهذه الكلمات – التي ذكرتها –في القرآن الكريم، ونعلم أن لفظة الزمان لم ترد أصلاً في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ولم يستعمل في زمن الرسول ﷺ بالمعنى المصطلح لها، ولأن المفسرين والمؤرخين واللغويين اجتهدوا في تفاسيرهم لها حسب الرأي الفلسفي الذي يعتنقونه عن الله، وتصورهم لوجوده تعالى، وقدم العالم، أو حدوثه عندهم [١].

والزمن والزمان في اللغة العربية كلمتان مترادفتان من حيث المعنى والدلالة فالزمن أو الزمان اسم " لقليل الوقت وكثيره، وإن رجح المُنجد أن الزمان مأخوذ من الزمن " [٢].ولفظ الزمن أو Time يستخدم عادة للدلالة على لحظات التغير، وهذا ما يشير إليه معنى اللفظ في اللغة العربية أو الإنجليزية. أو هو زمن الوجود، على العكس من مصطلح Tense[٣].

أما في اللغة الفرنسية فإن كلمة Temps تستخدم بمعنى حسي أكثر حيث تعني الطقس، أو الحالات المتتابعة للجو، والكلمة اللاتينية –Tempus– والتي منها استمدت كلمة الزمن بالإنجليزية والفرنسية فتعني أيضًا هذا المعنى المزدوج. أما الأصل السنسكريتي للكلمة فإنه يعني " يضيء " أو " يحرق " وقد يشير هذا الاستعمال إلى الطبيعة الأساسية لخبرتنا بإيقاعات الليل والنهار. وعمومًا بتتبع أصل كلمة الزمن نجد أن له معنيين: " عياني، ومجرد"، ولايزال هذا هو وضعها حتى اليوم.

وسوف أوضح فيما يلي ما جاء في بعض كتب اللغة لبعض الكلمات الدالة على الزمن، وكذلك معانيها في كتب الفلسفة وسواها.

١– حسام الألوسي: مقال – مجلة عالم الفكر – مرجع سابق – ص١١١.

٢– سيد محمد غنيم: مقال – مجلة عالم الفكر – مرجع سابق – ص٦٦.

٣– وهو مصطلح يدل على الزمن اللغوي من حيث كونه صيغًا ذوات دلالات زمنية. مالك يوسف المطلبي – الزمن واللغة الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٦ طبعة أولى، ص١٠ وما بعدها، وهو يعرض اهتمام الباحثين اللغويين بقضية التفرقة بين المفهومات الزمنية، ومن ثم بين المصطلحات الزمنية والدلالات اللغوية.

أ- ورد في لسان العرب تحت مادة " زمن " ما يلي: " الزمن اسم لقليل الوقت وكثيره، وقال شمر: الدهر والزمن واحد، وقال أبو الهيثم: أخطأ شمر، والزمان زمان الرطب والفاكهة وزمان الحر والبرد، قال: ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر قال: الدهر لا ينقطع، قال أبو منصور: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة، وعلى مدة الدنيا كلها، وسمعت غير واحد من العرب يقول: أقمنا بموضع كذا دهرًا، والزمان يقع على الفصل من فصول السنة، وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبه ذلك، والزمان يقع على جميع الدهر وبعضه"[١]، أما الدهر فهو الأمد المحدود، وقيل الدهر ألف سنة.

ويورد لنا ابن منظور الحديث: " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر " [٢]، ويقول إن أبى عبيد والشافعي فسَّراه بمعنى: أي لا تسبوا فاعل هذه الأشياء، فإنما يقع السب على الله، لأنه فاعل لها، وإن العرب وضعوا الدهر مكان الله لاشتهاره عندهم، ومنه قول الله تعالى في الآية الكريمة: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [٣].

ب- أما عند الجوهري: فإن الزمان هو الدهر كما جاء في لسان العرب أيضًا، وأما الحين فهو حسب تعريف الأزهري في اللسان (مادة حين): اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان، كما ورد ذلك في القرآن الكريم، في قوله تعالى: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [٤] أي في كل وقت، وقد يراد به مدة من الزمان غير مقدر في نفسه قول الله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً} [٥]، والوقت هو المقدار من الزمان.

... نود أن نقول إنه عند الحديث عن المذاهب الفلسفية للزمان نتحدث عن: قديم – حادث – أزلي – أبدي – سرمدي – والآن ونحن نتحدث عن المعنى اللغوي نذكر كلمات: زمان – دهر – حين – وقت. ويعلق أبو ريدة على مادة الزمان لديبور في دائرة المعارف الإسلامية [٦] ويقول: إن كلمة زمان لم ترد في القرآن بأي صيغة من صيغها ولكن ورد: دهر دهر – أبد – حين – الآن – المدة ... إلخ.

١- ابن منظور: لسان العرب – ج١٣- مادة زمان – طبعة بيروت – ١٩٥٦ – ص١٩٨-١٩٩.

٢- حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه ج١٦- بشرح النووي – الطبعة الأولى – القاهرة ١٤٠٧هـ – ص٢٢٦.

٣- سورة الجاثية – الآية: ٢٤.

٤- سورة إبراهيم – الآية ٢٥.

٥- سورة الإنسان – الآية ١.

٦- دائرة المعارف الإسلامية – تعليق محمد عبد الهادي أبو ريدة – ج١٠ – مادة زمان – مرجع سابق – ص١١١- ص١١١-١١٢.

ج- والطبري في تاريخه يقول: إن الزمان هو ساعات الليل والنهار وقد يقال ذلك للطويل من المدة والقصير منها، والعرب تقول: أتيتك زمان الحجاج أمير، وزمن الحجاج أمير، نعني به: إذ الحجاج أمير، ويقولون أيضًا أتيتك أزمان الحجاج أمير ... فيجمعون الزمان.ويريدون بذلك أن يجعلوا كل وقت من أوقات زمانه زامناً من الأزمنة، ومن قولهم للزمان: زمن قول أعشى بن قيس ابن ثعلبة:

وكُنت امرأً زمنًا بالعراق ⁂ عَقِيف المَناخِ طوُيِل التغنْ (١)

ويريد بقوله: " زمنًا " " زمانًا " فالزمان اسم كما ذكرت من ساعات الليل والنهار.

- ويفرق البيضاوي بين المدة بأنها حركة الفلك من البداية إلى النهاية وبين الزمان بأنه قسم من المدة، وأما الدهر فهو جزء من الزمان(٢).
- وعند الخوارزمي الزمان مدة تعدها الحركة مثل حركة الأفلاك وغيرها – والمدة عند بعضهم الزمان الذي لا تعده حركة، وعند أكثرهم إنه لا توجد مدة خالية عن حركة إلًا بالوهم(٣).

والبيضاوي والخوارزمي يُعرَّفان الزمان بطريقة تشبه إلى حد كبير تعريفات إخوان الصفا: حيث ربطا الزمان بالحركة والأفلاك وفرقا الزمان عن الدهر.

د- وإذا انتقلنا إلى الأشاعرة وزعيمهم أبو الحسن الأشعري نجده ينقل لنا عدة تفسيرات للوقت (الوقت والزمن عند متكلمي الأشاعرة والصوفية واحد كما سنرى):

١. فقال قائلون: الوقت هو الفرق بين الأعمال، وهو مدى ما بين عمل إلى عمل وأنه يحدث مع كل وقت فعل، وهذا قول " أبي الهزيل العلاف " (٤)

وكما حكى أبو القاسم عن أبي الهزيل أن الزمان مدى ما بين الأفعال وأن الليل والنهار هي الأوقات لا غير (٥).

١- الإمام الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الطبري – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ج١- دار المعارف مصر – ١٩٦٠م – ص٩.

٢- البيضاوي: أنوار التنزيل واسرار التأويل – ج١- نشر فليشر – ليبتزج ١٨٤٦م – ص١٠٥.

٣- الخوارزمي: مفتاح العلوم – فان فلوتن – برل١٩٨٥م – ص١٣٧-٣٣٨.

٤- أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين ... ج٢ – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد –مكتبة النهضة – ١٩٦٩م – ص١٣٠-١٣١.

٥- أبو القاسم الأزرقي: الأزمنة والأمكنة – حيدر آباد الدكن – طبعة أولى ١٣٣٢ هـ – ص١٣٩.

٢. وقال قائلون: الوقت هو ما توقته للشيء، فإذا قلت " آتيك قدوم زيد " فقد جعلت قدوم زيد وقتًا لمجيئك، وزعموا أن الأوقات هي حركات الفلك لأن الله عز وجل وقتّها للأشياء وهذا قول الجُبائي.

٣. وقال قائلون: الوقت عرض ولا تقول ما هو ولا تقف على حقيقته[١]

ونلاحظ أن كل ما فعله الأشعري هو مجرد نقل تفسيرات الآخرين، ونراه كذلك في كتابه نقل قول القائلين عن المكان أيضًا.

هـ. ويذكر البلخي [٢] في حد الزمان أنه " حركة الفلك ومدى ما بين الأفعال " وهذا قول المسلمين ومنهم كما ذكرنا قول ابي الهزيل – وحكى عن أفلاطون أنه يرى الزمان كونًا في الوهم، وحكى أرسطو طاليس في كتاب " السماع الطبيعي " أن جميع القدماء كانوا يقولون بسرمدية الزمان إلا أفلاطون، وروى عنه أفلوطرخس أنه قال: جوهر الزمان هو حركة وبعضهم " أي المسلمين " يقول: إن الزمان ليس بشيء !!.

و. والبيروني يذكر في " تحقيق ماللهند من مقولة" [٣] عند نقله لمذهب الرازي الطبيب – والذي تحدثت عنه من قبل – أن الأخير فرّق بين الزمان والمدة بأن العدد يلحق أحدهما دون الآخر بسبب ما يلحق العدد من التناهي، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لماله أول وآخر.

ومن أصحاب النظر ما جعل معنى الدهر والزمان واحدًا، وواقع التناهي على الحركة العادية لها، ومنهم من جعل السرمد للحركة المستديرة فلزمت المتحرك بها ... ويذكر البيروني رأي البعض أنه لا زمان أصلاً ... وهذا هم أصحاب نُفاة الزمان، وقال البعض الآخر: إنه جوهر قائم بذاته ... والبيروني مُتحير بين إثبات الزمان ونفي الزمان، ولكن الزمان الحقيقي كما يقول الزركشي [٤] صاحب البرهان – هو مرور الليل والنهار، أو مقدار حركة الفلك، وله آراء مطابقة تمامًا مع رأي إخوان الصفا وخلان الوفا الذين يثبتون الزمان كما سنرى.

١– الأشعري – مقالات الإسلاميين – ج٢ – ص١٣١ – مصدر سابق.

٢– ابن مطهر المقدس (البلخي) – البدء والتاريخ – ج١ – ص٤١ – نشر هوارد كلمنت باريس ١٨٩٩م – انظر أيضًا: حاشية الشيخ إسماعيل الكينبوي على شرح جلال الدين الدواني الصديقي (شرح العقائد العضدية) – طبعة أولى ١٣١٦هـ – ج١ – ص٧٤.

٣– البيروني – تحقيق ما للهند من قوله مقبولة في العقل أو مرذولة – ص٢٧١ – حيدر آباد الدكن – ١٩٥٨م

٤– الزركشي– البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ج١٢٣ – طبعة القاهرة – ١٩٥٧م (انظر في ذلك أيضًا: أبو العلاء المعري – اللزوميات – رسالة الغفران – تحقيق د. بنت الشاطئ – دار المعارف مصر ١٩٦٣، والمقابسات للتوحيدي – تحقيق حسب السندوبي وآخر – مطبعة الإرشاد – بغداد ١٩٧٠م – ودائرة المعارف الإسلامية مواد: زمان – دهر – حين).
(والمعجم الفلسفي– مجمع اللغة العربية – ص٧٩).

ثالثًا: المفهوم الديني للزمان في الأديان الثلاثة الكبرى (اليهودية – المسيحية – الإسلام):

... إن معالجة الكتب المقدسة الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) لهذا الموضوع تحتمل عدة تفسيرات، وبما أن معالجة الزمان هنا معالجة دينية، فإن المشاكل اللاهوتية احتلت المكانة الأولى، ومن الممكن تركيز القضايا الرئيسة التي فُهمت من خلالها تلك النصوص فيما يلي:

أ- **الله والزمان:** هل الله في زمان، أم مع الزمان، أم قبل الزمان، أو هو لا زماني ؟

ب- **الله والعالم:** هل كان الله وحده؟ أم معه مادة أو عالم ؟ وعلى الأول هل بينه وبين العالم زمان ؟ وما نوع سبق الله للعالم أهو زمان أم نوع آخر ؟ ولماذا اختار الله زمانًا بعينه أوجد فيه العالم ؟

ج- **معنى الزمان** واليوم والليل والنهار قبل وجود الزمان الشمسي أو الذي ابتدأ مع بداية العالم وحركته، ولماذا أوجده في ستة أيام ؟ وهل للعالم ولزمانه نهاية ؟

تلك هي الأسئلة التي يمكن طرحها قبل أن نرى كيف عالجت نصوص الكتب المقدسة فكرة الزمان من منظورها الديني، يقول حسام الألوسي[1] إن نصوص الكتب المقدسة لم تعالج كل هذه المسائل، أو لنقُل إنها لم تقصُد معالجتها بهذا الأسلوب الفلسفي، ولكن المشكلة هنا: مشكلة إن ما حدث بالفعل هو أن أتباع هذه الأديان على اختلاف مذاهبهم حاولوا أن يجدوا في تلك النصوص ما يؤيد مذاهبهم في هذه المسائل.

وليس بإمكان الباحث أن يؤكد أن ما استنتجوه من معان لهذه النصوص هو بالفعل معانيها الأصلية، وفيما عدا التساؤل الثالث نجد أن الأسئلة وأجوبتها هي من نوع الأسئلة اللاهوتية والفلسفية التي تعكس تطورًا لاحقًا اجتمع على تكونه لديهم جملة عوامل، وبالتالي تشكل معالجات وتقدم حلولاً مستقلة وقائمة بذاتها أكثر مما تعكس موقف الكتب المقدسة نفسها[2].

... ونود الآن أن نقف على طريق المنهج السليم، ونحاول فهم النصوص من الكتب المقدسة الثلاثة على أساس نظرة كلية، وعلى أساس الدراسة التاريخية والاستعمال اللغوي المعاصر للنصوص جهد الإمكان حسب الآتي:

أ- بالنسبة لليهود والمسيحية، وذلك من خلال نصوص التوراة والإنجيل.

ب- بالنسبة للإسلام، وذلك من خلال نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

١- حسام الألوسي – مقال – عالم الفكر – مرجع سابق – ص١١٥.

٢- المرجع السابق – ص ١١٦-١١٧.

١. نصوص الزمان ومتعلقاته في التوراة والإنجيل: [١]

نجد نصوصًا متفرقة في سفر التكوين (الإصحاح ١: من ١ – ١١)، وسفر نحميا (١٦ – ٦/٥) وسفر أيوب (٣٨: ١-١٢) في كتاب العهد القديم، وكذا في العهد الجديد (إنجيل متى ١٣: ٢٤-٣٠)، (إنجيل لوقا ٢١: ٥-٣١) وإنجيل (مرقص ١٣: ٣-٣٣)، وفي المزامير ما يفيد معنى الزمان ومتعلقاته كما سنرى.

ونضرب بذلك بعض الأمثلة للاستشهاد، ثم نتحدث عن الاستنتاج من النصوص ولقد جاء في سفر التكوين الإصحاح الأول أكثر من ٣٥ نصًا تدل دلالة واضحة على مفهوم الزمان نذكر منها ما يلي:

- في البدء خلق الله السموات والأرض (١ – ١).
- وسمى الله، أو (دعا الله) النور نهارًا والظلام أسماه ليلاً وكان مساء وكان صباح يوم واحد (٦).
- وسمى الله، أو (دعا الله) الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوم ثان (٩).
- وكان مساء وكان صباح يوم ثالث، ويوم رابع ويوم خامس، ويوم سادس (١٤ – ١٩).
- وقال الله نيرات (أنوارًا) في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ... (١٥).
- أما في **سفر نحميا** فنجد أن كلمة الدهر وردت في أكثر من موضع، نذكر مثالاً لذلك: "... وقال اللاويون باركوا الرب إلهكم من الدهر إلى الدهر ..." (١٣-٥).
- أما في **سفر أيوب** فجاء اليوم والصبح والفجر وغير ذلك، ونذكر مثالاً لذلك:
" ... أأنت في أيامك أمرت الصبح وعرفت الفجر موضعه ... " (١٨-١٢)
- أما في **سفر العدد** (الإصحاح التاسع) نجد تحديد وقت الفصح لبني إسرائيل على لسان سيدنا موسى ... " عليه السلام ":
" وليعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته، في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر[•] بين العشاءين تعملونه في وقته ... " (٩-٣).

١- سوف نعتمد على نصوص الكتاب المقدس (أي كتب العهد القديم والعهد الجديد) وقد ترجم عن اللغات الأصلية جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، بيروت – لبنان – ١٩٨٠م. والعهد القديم، وعدد أسفاره ٣٩ سفرًا، وكتاب العهد الجديد (ليسوع المسيح) وقد ترجم من اللغة اليونانية وعدد أسفاره ٢٧ سفرًا، وهما في مجلد واحد، وكذا على مزامير داود ويتكون من ١٥٠ مزموراً.

•- المقصود: الشهر الأول من السنة الثانية لخروج بني إسرائيل من مصر، وعندما كلم الرب موسى في برية سيناء (العهد القديم – الإصحاح التاسع) – ص٢٢٥ – بتصريف.

- أما في **سفر الحكمة** نجد نصوصًا تشبه إلى حد كبير ما جاء في رسائل إخوان الصفا فيما يختص بنظام الكون والعالم، وتحول الأوقات، ومدار الكواكب والأفلاك والنجوم، فمثلاً نجد هذا النص:

"ووهبني علمًا يقينًا بالأكوان حتى أعرف نظام العالم وقواة العناصر ومبدأ الأزمنة ومنتهاها، وما بينهما، وتغير الأحوال، وتحول الأوقات، ومدار السنين، ومراكز النجوم"[١].

- وإذا انتقلنا إلى المزامير نجد النصوص التي تدل على الزمن وعدد السنين والأزل والأبد طبقًا للآتي:

– لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدها عبر وكهزيع من الليل ... (٩٠-٤).

– ورحمة الرب منذ الأزل إلى الأبد على الذين يتقونه وعدله لبني البنين ... (١٠٢-١٧).

- لصانع السماوات بحكمة فإن إلى الأبد رحمته ... (١٤٧ – ٥).
- باسط الأرض على المياه فإن إلى الأبد رحمته ... (١٤٧ – ٦).

هذا ما جاء في العهد القديم والمزامير، والتي تمثل تأويلات الزمن وهيرمينوطيقا الزمان في الديانة اليهودية – فماذا عن العهد الجديد الذي يمثل الأناجيل لدى الديانة المسيحية ؟

- وفي العهد الجديد –**إنجيل متى** نجده يتكلم عن الحصاد – بمعنى توعد إبليس والأشرار والذين زرعوا الزؤان – منتهى الدهر، وإن الحصادين هم الملائكة ويرسلون أولئك للنار [٢].

وفي فصل آخر من إنجيل متى أيضًا نجده الحواريون يسألون المسيح عن منتهى الدهر، وعلامات مجيء المسيح فيقول لهم " إن علامة مجيئه مجاعات وزلازل وتضيق الأمم على أمته ضيقًا ليس مثله منذ " أول العالم " إلى الآن (ولن يكون) وستزول السماوات والارض وتظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوئه، وتتساقط الكواكب، ولكن اليوم أو الساعة لا يعلمها إلا الله الأب وحده " [٣].

١- ٧: ١٧ – ١٨ – ونلاحظ أن إخوان الصفا أيضًا تأثروا وأخذوا من النصرانية، وهذا دليل جديد على موسوعية هؤلاء القوم.

٢- إنجيل متى (٣: ٢٤-٣٠) ويحتل إنجيل متى بين الأناجيل الأربعة المكانة الأولى في نظام ترتيب أسفار العهد الجديد.

٣- إنجيل متى (٢٤: ٣-٣٣) أيضًا: إنجيل لوقا (٢١: ٥-٣١)، إنجيل مرقص (١٣: ٣-٣٣).

وفي **إنجيل يوحنا** أول فصل منه نجد الآتي:

- في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله.
- هذا كان في البدء عند الله كل به كون، وبغيره لم يكن شيء مما كون.[١]

الاستنتاج والنقد:

نستنتج مما سبق: إن **سفر التكوين** هو أهم نص في اليهودية والمسيحية أيضًا، وهذا السفر يتعلق بمشكلة أصل العالم ومشكلة الزمان بإجماع المعنيين لقدمه "أي قدم الزمان تمشيًا مع الفلاسفة "، ولأنه مخصص بشكل متعمد للحديث عن قصة الخليقة بشكل مفصل، أو ما يسمى بداية الكون ونشأة الكون. وهنا نجد حسام الألوسي يعلق على ذلك ويقول: إنه لا يوجد في مكان آخر كما هو واضح في النصوص المعروضة [٢] وكما سبق أن وضحناه. وعند التأمل فيما سبق نجد أنه لا يضارع هذا النص (سفر التكوين) من حيث هذه المواصفات سوى النص الذي ذكرناه عن إنجيل يوحنا، ولكن هذا الإنجيل الذي يعرض فكرة الكلمة بمعنى أفلوطيني محدث مثار شك.

كما أن البعض يرى أن الإنجيل نفسه لم يكتبه يوحنا الحواري بل شخص آخر من تلاميذ الأفلاطونية المحدثة[٣]، ونحن نعلم إن إخوان الصفا أخذوا عن هذه المدرسة. ومع ذلك فالقول بأنه في البدء كان الكلمة ... لا تتضمن معنى محددًا واضحًا عن:

هل التكوين الذي هو بواسطة الكلمة الأزلية كان أزلاً أم مع زمان لاحق ؟!

أيضًا ... هل هو صنع من مادة أم إبداع من لا شيء ؟

ثم إن المشاكل الفلسفية الأخرى التي عالجها اللاهوتيون فيما بعد عن العلاقة بين الله وبين الزمان غير مُبينة ولو بأية صورة.

وعمومًا ... فالكلمة هنا يقصد بها الأمين أو المسيح، وهو أحد الأقانيم الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) فالحديث هنا عن الله واقانيم ثلاثة تابعة، والقول إن أقنومة كون مثل القول إن الله كون، فالمشكلة الأساسية باقية، وهي غموض هذا النص وعدم تحديده أو توضيحه للمسائل اللاهوتية حول الزمن التي ستثار فيما بعد.

١- إنجيل يوحنا (١: ١ – ٣) وهو يختلف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى في اختيار الموضوعات والروايات والخطب.

٢- حسام الألوسي: المقال – مرجع سابق – ص ١١٩.

٣- ويل ديورانت: قصة الحضارة ج١١ ص٢٩، أيضًا: Encyctepaedia Britanica V.XIII P: 98

فإذا رجعنا إلى نص التوراة، وسفر التكوين ومن خلال إشارتنا إلى النصوص الأخرى ودلالتها التأويلية نجد المسائل الآتية:

١. حول بداية العالم ومن أي شيء وجد، وموقع الزمان من القضية، وأيًا يكن. نجد المعنيين المحدثين هنا يذهبون مذهبين رئيسين:

الأول: إن النصوص التي ذكرناها من **سفر التكوين** تعلم الثنائية Dualism ثنائية الله والمادة، فهي تتكلم عن خليط من ماء وظلمة قبل بداية الخلق، وتسميه Tehom أو العمق The deep، وهو مرادف للكلمة البابلية Ti'amat، وإن فكرة الخلق من العدم لا توجد أبدًا في التوراة[١].

والنص الأقرب إليها هو ما في المكابيين الثاني ويتكلم عن أن خالق العالم سيعيد الروح والحياة برحمته (٧: ٢٨).

وإن النص يعلم بوضوح فكرة الصنع الأفلاطونية من مادة غير متعينة كما في حكمة سليمان (أو سفر الحكمة) " ولم يكن صعبًا على يدك القادرة على كل شيء التي صنعت في العالم من مادة غير مصورة أن تبعث عليهم جمًا من الأدباب والأسود الباسلة " (سفر الحكمة – ١١ – ١٧).

وهذا الرأي يؤكد صحته من الإشارة إلى أن آباء الكنيسة الأول مثل:

جوستين مارتير Justin Martyr، وكليمنت الاسكندري Clement of Alex... فهموا الخلق بهذه الصورة، وقالوا إن أفلاطون أخذ من موسى هذه العقيدة[٢]

الثاني: إن النص المشار إليه يعلم الخلق من عدم، وإن النص رقم واحد يقرر كيفية خلق الكون بشكل عام، وإنها مفصولة عن النص الثاني وما بعدها التي تتحدث عن الخلق بشكل مفصل، وعن جزء منه هو الأرض، وإن النص في سفر الحكمة الذي يعلم الصنع من مادة غير معينة والمشار إليها فيما سبق، وهو مزيج من فكر يوناني ويهودي وإن فكرة " المادة غير المصورة " في النص هي فكرة فلسفية إغريقية خالصة، وإنه حتى لو صدقنا فيكن التفكير بسهولة أن الله خلق هذه المادة أولاً من العدم ثم منها أوجد العالم.

١– حسام الألوسي: مقال – مرجع سابق – ص١٢٠، ولإخوان الصفا فصل مستقل عن بيان بدء الخلق، وللأسف لم نجد فيه أي جديد ويُعد مجرد قصص وحكايات وروايات عن الحيوانات، ومناظرة بين الإنس والجن لا تفيد موضوع البحث، ولكنها مجرد آداب وحكمة، (راجع: الرسائل جـ٢، ص٢٠٣)

٢– حسام الألوسي: مقال – مرجع سابق، جـ١٢٠ نقلاً عن Encycl: R. and under Creation (Publical Conception).

... وبعد ... فإن المشكلة بعد كل هذا تبقى دون حل فسواء كان العالم من مادة أو من عدم، فليس هنا أي فكرة عن الزمان ومشاكله ... كما نجدها عند اللاهوتيين فيما بعد،فالقول بأن الخلق من عدم قد يفهم بأنه دون، سبق الله للعالم زمانيًا، بمعنى قدم العالم بالزمان وحدوثه بالذات، ومعنى ذلك أن الزمان الأزلي مع الله.

وقد يفهم بأنه مع سبق الله الزمني، أو أن للعالم بداية، وأن الزمان مع العالم يبدأ، أي أن الزمان له بداية وحادث، أي أنه إذا كان العالم قديم، فالزمان حديث.

وخلاصة الأمر إن مشكلة الزمن لم تكن مطروحة بشكلها الفلسفي أو الذي عرفناه على يد اللاهوتيين، وإن الكتب المقدسة تتحدث عن أصل العالم والزمان وعلاقة الله بهما بشكل غير محدد، مما ترك مجالاً للمذاهب الاجتهادية فيما بعد، والغريب أن هذا البُعد من تعريفات الزمان ربط العالم بالزمان ولم يُذكر أي شيء عن الحركة. وهذا ما سنجده عندما نتحدث عن الخلق الدائم المستمر لدى الإسلاميين، والآن ننتقل إلى النصوص الدينية في القرآن الكريم من خلال صفحات قليلة نوضح فيها نصوص الزمان ومتعلقاته ومشتقاته، وما سينتج من ذلك.

٢. بالنسبة للإسلام ... نصوص في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة:

...من الصعب تحديد موقع فكرة الزمان في المفهوم الديني الإسلامي، حيث إن كلمة الزمان كمصطلح فلسفي لم ترد في القرآن الكريم المصدر الأصلي للإسلام كما سبق القول، ولكن يمكن القول إن هناك دلالات واضحة وتعبيرات جليّه تدل من قريب أو بعيد عن أصل فكرة الزمان، وإن لم تكن تنطق بها صراحة، ومن هنا نجد أن هناك آيات كثيرة يستخدم القرآن فيها كلمات دالة على مرادفات للزمن مثل: الوقت، والحين، والدهر، والميقات، والآن، والسرمد، والأجل، واليوم، والساعة، والآمد، والمدة... وغير ذلك.

ونصوص القرآن الكريم تتعلق بشيئين: نصوص عن أصل العالم وكيف أوجده الله تعالى من مادة أم من عدم ؟ ونصوص تتعلق بفكرة الزمان أو اليوم، وهل الله سبحانه وتعالى له زمان أم ماذا ؟ [١].

والنصوص الأولى ضرورية كما فعلنا مع التوراة والإنجيل حتى نتبين كيف أُثيرت مشكلة وجود الله ووجود العالم، وبالتالي يسهل الوصول إلى تصور القرآن الكريم للزمنية واللازمنية، وبدء الزمان أو عدم بدايته ... وهكذا.

١- حسام الألوسي – مقال – مرجع سابق. ص١٢٠.

تعقيب:

وقد نجد تعليلاً لعدم ورود لفظة زمن في القرآن الكريم وفي مصطلحات سيبويه فمادة زمن: ذات دلالة سلبية ومنها رجل زمن أي مبتلى وزمانة: العاهة، وزمن بزمن زمنًا فهو زمن، والجمع زمنون وزمين والجميع زمني لأنه جنس للبلايا التي يصابون بها، ويدخلون فيها وهم لها كارهون (انظر: ابن منظور – لسان العرب، جـ١٣. ص١٩٩).

وهذه النصوص المستمدة من القرآن الكريم هي قول الله تعالى:

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...}[١]

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٢]

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۞إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [٣]

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّاتَعُدُّونَ}[٤]

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...}[٥]

{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [٦]

{وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [٧]

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ...} [٨]

أما في **الحديث النبوي الشريف** فإننا نجد أحاديث كثيرة مثل حديث: إن الله كان قبل كل شيء، ثم خلق الكون وعرشه على الماء، وحديث العلم، وحديث العقل... إلخ.

١- سورة هود – آية ٧، أيضًا سورة السجدة – آية ٤.

٢- سورة فصلت – آية ٩، وكذلك آيات ١٠، ١١، ١٢ (المقصود بالخلق في يومين ... يوم الأحد ويوم الاثنين وهي لخلق الأرض وفرغ الله من خلق الأرض وجميع منافعها وأسبابها في أربعة أيام، منها اليومان اللذان خلق فيهما الأرض راجع في ذلك – مختصر تفسير الطبري – ص. ص ٥٤٠–٥٤١ – دار الشروق ١٤٠٠ هـ

٣- سورة يس – آية ٨١–٨٢، انظر أيضًا – آية ١١٧، الأنعام ٧٣، آل عمران ٤٧، فاطر ٦٨.

٤- سورة السجدة – آية ٥.

٥- سورة لقمان – آية ٢٩، أيضًا سورة الحج – آية ٦١.

٦- سورة المعارج – آية ٤.

٧- سورة الحج –آية ٤٧.

٨- سورة يونس – آية ٥ (ونرى أن ذلك ينطبق على الزمان الطبيعي في البُعد الديني في الإسلام للزمان، وعلم عدد السنين والحساب بمنازل القمر، يؤكد إن إخوان الصفا تأثروا بالنص تأثيرًا بالغًا فذاك يدخل في علم الفلك) ويتضح من الآية الكريمة أن الزمان نسبي أي أنه على الأرض غيره على المريخ، ولقد أخذ معظم فلاسفة الإسلام بالنظرية المشائية في الزمان، والتي تفترض قدم العالم.

الاستنتاج والشرح:

إن القرآن الكريم إنما في جميع نصوصه، ومن خلال نظرة كلية – يدل على الصنع والخلق من مادة أولية هي الماء، وأن النصوص التي ذكرنا بعضها مأخوذة معًا تعطي بشكل عام – مع بعض الفروق شبهًا بقصة الخلق في سفر التكوين وأن المفسرين استعانوا بسفر التكوين، وبالإسرائيليات لوضع التفاصيل للصورة القرآنية.

كما أن الأحاديث المذكورة تعطي –على حد قول حسام الألوسي – التفاصيل المطلوبة نفسها، وتعكس أيضًا عناصر الصورة القرآنية – التوراتية نفسها.

والنص رقم (٦) لا يفيد بنفسه معنى الإرادة المخصصة للأوقات حسب ما يريده المتكلمون في قولهم بالخلق في زمن لاحق وبداية للزمان وخلق من عدم ... إلخ.

ومما يستحق التنويه أن معظم المفسرين يقولون بالخلق من عدم وبداية الزمان، والصعوبة التي تظهر من الاعتقاد بأن الخلق استغرق مدة، " أي كان في الزمان " إنه في هذه الحالة يكون الزمان موجودًا قبل وجود ما خلق فيه، ولحل هذا الإشكال لجأ هؤلاء إلى القول بأن الزمان خلق مع خلق العالم (السماء والأرض)، وهذا هو موقف اللاهوتيين القائلين بحدوث العالم حدوثًا زمنيًا، كالغزالي وآخرين قبله وبعده [١]، ولكن البعض فسروا الآيات بمعناها الحرفي مؤكدين أنها تدل على وجود الزمان قبل وجود العالم مثل الفارابي في "الجمع بين رأيي الحكيمين" [٢] وابن رشد في "فصل المقال"[٣].

ويرى ابن تيمية [٤] أن هذه الآيات تدل على أنه قبل الزمان الذي نعرفه كان هناك زمان زمان آخر ومادة أخرى، وعرش وماء ودخان. ونقول إن ابن تيمية لا يختلف كثيرًا فيما ذهب إليه عما جاء في كتب الإمام الغزالي سواء في مقاصد الفلاسفة أم الاقتصاد في الاعتقاد. وذكر الحافظ ابن الحافظ " محمد بن عثمان بن أبي شيبه " في كتابه " صفة العرش " عن بعض السلف، " إن العرش مخلوق من ياقوته حمراء بُعد ما بين قُطريه مسيرة خمسين ألف سنة ".

١– حسام الألوسي – حوار بين الفلاسفة والمتكلمين– بغداد ١٩٦٧م – ص ١٢٨.

٢– الفارابي: الجمع بين رأيي الحكيمين (أفلاطون الإلهي وارسطو) – مطبعة السعادة – ١٩٠٧م – ص٢٥.

٣– ابن رشد – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال– دار إحياء الكتب العربية – انظر أيضًا الكشف الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٨٩ – القاهرة ١٩٥٥م – ص١٣.

٤– ابن تيمية: مجموعة تفسير ابن تيمية – نشر عبد الرحمن شرف الدين – ص٢٤٩، ورسائل ابن تيمية ج٥– المنار – القاهرة ١٣٤٩ هـ – ص١١٧. وتسع رسائل في الحكمة – القسطنطينية ١٢٩٨هـ – ص٣٩.

ويذكر ابن كثير في تفسيره قول الله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}[١] أي أنه يعد ما بين العرش إلى الأرض السابقة مسيرة خمسين ألف سنة، واتساعه خمسون ألف سنة، وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، ولذا سموا الفلك التاسع، والفلك الأطلس والأثير، ويعارض ابن كثير ذلك بقوله: هذا ليس بجيد، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يُحَمَل[٢].

وفيما يخص (اليوم) اعتبره البعض مساويًا لألف سنة من أيامنا، ولو أنه في ذلك الوقت لم يكن هناك يوم بمعنى الليل والنهار، وهذا هو رأي السيوطي (في تفسير الجلالين)، وابن عباس ومعظم علماء الأمة (تفسير ابن عباس)، ويرى الزمخشري [٣] أنه يوم مثل اليوم الذي نعرفه، وهو رأي مجاهد، والحسن البصري، ويرى الطبري في تاريخه، ومثله صاحب المنار[٤] إن هذه الأيام لا يعقل أن تكون مثل أيامنا، لأنها إنما وجدت بعد خلق السموات والأرض، أو أنه لذلك ليس هناك يوم أو ليل أو نهار، بل نسميها أيامًا لأن الله سبحانه سماها بذلك، ويرى الزركشي مثل هذا ويقول إنها أيام تقديرية، وقد واجه المفسرون مشكلتين في هذا الصدد كما يذكر حسام الألوسي[٥]:

الأولى: لماذا اختار الله أن يخلق العالم لمدة معينة من الزمن بدلاً من أن يوجده في الحال ؟ و**الثانية:** ولماذا في ستة أيام بالذات ؟

وقد قدم المفسرون عدة تفاسير وتبريرات عن السؤال الأول:

إن الخلق في زمن دليل على إرادة الله الحرة، والذي لا يرتبط في نظرنا بأي زمان، وهو اختيار البيضاوي في تفسيره رغم معارضة الكازروني صاحب الحاشية للمؤلف نفسه حيث يثير تساؤلات، ويدفع بعدم قناعته بهذا، إذ لماذا يكون الخلق في مدة أدل على حرية الإرادة من الخلق في الحال [٦] !!

١- سورة المعارج – آية ٤.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية – المجلد الأوّل – العدد١- الطبعة الأولى – دار الغد العربي – القاهرة ١٩٩٠م – ص١٧.

٣- الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – جـ٢ – طبعة بولاق – ١٣١٨ هـ – ص٩٨٢.

٤- محمد رشيد رضا: تفسير المنار – ص٢٥ – ١٢٤

٥- حسام الألوسي: مقال – مرجع سابق – ص١٢٩.

٦- محمد رشيد رضا: تفسير المنار – ص٢٥-١٢٤.

والإمام الرازي يرى في تفسيره أن الخلق في مدة هو ما قدرته الإرادة الإلهية التي وضعت لكل شيء مكانه وزمانه، كما أن الخلق في لحظة ربما أعطى انطباعًا أن وجود العالم هو مجرد صدفة[١].

أما عن تبريرات السؤال الثاني لماذا ستة أيام ؟

فالكلام فيه كثير ... فالزمخشري يتجاهل المشكلة، ويقول إن هذا راجع إلى كلمة الله سبحانه، ومثله عدد ملائكة النار، وعدد حملة العرش، وعدد الشهور، وعدد السنوات[٢].

... ويعزو الرازي ذلك العدد إلى سبب تاريخي، لأن هذا العدد ذُكر في التوراة، وكان العرب على صلة باليهود، وكأن الله يريد أن يقول اعبدوا الله الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه خلق الأرض والسماء في ستة أيام [٣]

ما نود أن نقوله ... لقد أجمع العلماء قاطبة، ولا يشك في ذلك مسلم، أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما دل عليه القرآن الكريم، فاختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه، أو كل يوم كألف سنة مما تعدون ؟ واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شيء مخلوق قبلها ؟ أم لا ؟

فذهبت طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء، وإنما خُلقتا من العدم المحض. وقال آخرون: بل كان قبل السموات والأرض في مخلوقات أخرى استنادًا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}[٤].

وعلى حديث الرسول (ﷺ) وهو حديث عمران بن حصين: [كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ][٥].

وقد دارت أسئلة ومحاورات كثيرة حول بدء الخلق، واختلف العلماء في أيهما خلق أولاً السموات أم الأرض، أم العرش أم القلم ...؟.

وكذا عن: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟.

١- حسام الألوسي: مقال – مرجع سابق – ص١٢٩.

٢- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المشهور بتفسير البيضاوي: ج٣- نفس الصفحة المطبعة الميمنية بالقاهرة – ١٩٠٢م – ص١٣ وما بعدها والحاشية.

٣- الرازي: مفتاح الغيب – ج٤ – القاهرة ١٣٠٩هـ – ص٢١٤.

٤- سورة هود: آية ٧.

٥- الحديث رواه مسلم في صحيحه – المجلد السادس – جـ١٦ – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – بشرح النووي – القاهرة القاهرة – ص٢٢٦.

فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير (الطبري) وابن الجوزي، وقال ابن جرير، وبعد القلم السحاب الرقيق، واجتمعوا على ذلك، واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وابو داود، والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ... قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ فَجَرَى في تلك الساعة بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يوم القيامة].

وكما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال: عن عمرو ابن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء "، قالوا فهذا التقدير هو كتابة بالقلم والمقادير، ومن هنا كان حجة القائلين بأن القلم هو أول المخلوقات. وقد دل على هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير، كما ذهب إلى ذلك الجمهور.

ويذكر ابن كثير أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع، ثم يواصل ما ورد في صفة خلق العرش والكرسي، ويستند إلى قول الله تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} [1] {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ} [2] {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}[3].

وأما الكرسي، عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ} [4]، أي علمه، والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه أنه قال الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل، وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت، وهذا القول يشبه إلى حد كبير ما قال به إخوان الصفا في رسائلهم كما سنرى، وابن كثير يقرر أن هذا القول فيه نظر، لأنه قد يثبت أنه أعظم من السموات السبع بشيء كثير.

والكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه، ومثل هذا لا يكون فلكًا.

١- سورة غافر – آية ١٥.

٢- سورة طه – آية ٥ – وقد ورد ذكر لفظة " العرش " في القرآن الكريم حوالي ٢٢ مرة أغلبها عن الاستواء على العرش بعد تمام الخلق.

٣- سورة الأعراف – آية ٥٤.

٤- سورة البقرة – آية ٢٥٥ (جزء منها) وهي الآية المعروفة بآية الكرسي.

وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه، هذا مع اختلافهم في ذلك كما هو موضوع في كتبهم [١] – وفي خلق ما بين السموات والأرض روى عن محمد بن إسحاق أنه قال: يقول أهل التوراة (اليهود) ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل (المسيحيون) ابتدأ الله الكون يوم الاثنين، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى عن رسول الله ﷺ: " ابتدأ الله الخلق يوم السبت " وهذا القول الذي رواه ابن إسحاق عن المسلمين مالت إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم، ويؤيد ذلك حديث أبي هريرة: " خلق الله التربة يوم السبت " والقول بأنه يوم الأحد رواه ابن جرير عن السُدَي عن أبي مالك ... وقد اختار ذلك ابن جرير وهو نص التوراة – كما ذكرنا – وهو أشبه بلفظ الأحد، ولهذا أكمل الخلق في ستة أيام، فكان آخرهن يوم الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع، وهو اليوم الذي اضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا[٢].

ونعود لحديث أبي هريرة حيث قال: " أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبل يوم الأحد وخلق الأشجار يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء، وبث الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر خلقه في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل"[٣].

وعن الزمان قال الرسول ﷺ: " الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنى عشر شهرًا"[٤]. فالزمان المحقق ينقسم إلى الليل والنهار، وليس بينهما غيرهما مصداقًا لقول الله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}.

... وأخيرًا فهناك مسالة عدم تعب الله بعد الخلق، وعدم الراحة كما جاء في الديانة اليهودية – في اليوم السابع، فإن هذا التفسير الهرمينوطيقي هو المعتاد، وإن هذا التصور التوراتي يتعارض مع فكرة الإسلام وتصوره عن قدرة الله تعالى.

١– ابن كثير: البداية والنهاية – مصدر سابق – ص٢٠.
– تعقيب: وعلق الطبري الحكم على معنى كرسيه (الكرسي) وقال: كثر الاختلاف في تفسيره وذكره، والله أعلم به (راجع تفسير الطبري – ص٤٦).
٢– المصدر السابق – ص٢١.
٣– رواه الإمام مسلم في صحيحه باب بدء الخلق (انظر ابن كثير – البداية والنهاية – ص٢٣).
٤– رواه الإمام البخاري في صحيحه جـ٣ باب بدء الخلق (انظر في ذلك ابن كثير: البداية والنهاية جـ٢٥)، أما فيما يختص بالدهر، فقد ثبت في الصحيحين من حديث سفيان بن عُيينة عن الزهري عن سعيد بن المُسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " قال يؤذيني ابن آدم بسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار، وفي رواية فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره " (انظر المصدر السابق ص٤١).

وإن كان بعض الباحثين الغربيين مثل جولد تسيهر " اليهودي " وكاتش Katch " المسيحي " وكوفين يفسرونها تفسيرات أخرى.[١]

وعن الخلق الدائم (المستمر) نقول إن فعل الله تعالى أزلي، وإن نصوص القرآن الكريم تدل على أنه قبل هذا العالم زمان ومدة وعرش ... إلخ، وأن القرآن الكريم فيه دلائل عن الزمن الكوني، والزمن الطبيعي، وعلامات الاهتداء، ولكن لم ترد لفظة الزمان كمصطلح فلسفي في القرآن الكريم، ومن هنا نرى أن الصوفية يستخدمون كلمة " وقت " في مقارباتهم الهرمينوطيقية للزمن والزمان، وهذا موضوع بحث آخر.

رابعًا: رؤية إخوان الصفا والتوحيدي (مقاربة في هيرمينونيطيقا الزمن):

نعود ونقول إن مشكلة الزمان تُعد من أعقد المُشكلات الفلسفية، حيث إنها تمثل المحور الرئيس الذي ترتبط به معظم القضايا الفلسفية الأخرى. ولقد أثار موضوع الزمان وتصوره وتأويلاته عدة مشكلات وقضايا انبثقت عنها أبعاد فيزيقية، وميتافيزيقية، ورياضية، وفلكية.

ومن هنا كان من الموضوعات الهامة التي شغلت أكثر الفلاسفة والمتكلمين والصوفية والعلماء، ولقد تعددت الآراء في تصور مفهوم الزمان، ووقفوا هؤلاء جميعًا منهم مواقف متمايزة ومتباينة، ومن هنا أردنا أن نسلط الضوء في هذه النقطة على جماعة فلسفية تمثل فكراً فلسفياً في القرن الرابع الهجري في مقاربة مع أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء أبو حيان التوحيدي الذي عاش في الفترة الزمنية نفسها.

ويجدر بنا القول بأنه إذا كان الزمان كفكرة فلسفية تعتبر من أعقد المسائل الفلسفية، فإن دراسته لدى إخوان الصفا تزيد من تلك التعقيدات، نظرًا لظروف تكوين هذه الجماعة الفلسفية والتي اتصفت بالسرية والكتمان في أول الأمر، وبصفتها إحدى الجماعات التي تفرعت عن المذهب الإسماعيلي الشيعي[٢]، بل هم طلائع فلاسفة الإسماعيلية والباطنية لدى البعض[•]. فموضوع الزمان لدى إخوان الصفا يمثل مكانة هامة يلاحظها الدارس في أغلب جوانب فلسفتهم، وذلك من خلال ثلاثة أوجه:

١- جولد تسيهر: العقيدة والشريعة – ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة – ص١٦.

٢- لمزيد من التفاصيل عن جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا انظر في ذلك صابر أبا زيد: فكرة الزمان عند إخوان الصفا – دراسة تحليلية مقارنة – مكتبة مدبولي – الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٩٩ – ص١٥ وما بعدها.

•- يمثل هذا الاتجاه من المستشرقين دى بور – آيف ماركيه– لويس ماسينيون – طبقًا للمصادر الآتية:

- De Bor (T.G): Ikhwan – al–Safa, Encyclopèdie, de L'Islam, Tome. 2. Paris. 1954

- Marquet (Yves): Imamat, Resurrection et Hierashie Selon les Ikhwan – al–Safa, Revue des Etudes. Islamiquas, annee, Paris, 1962

الوجه الأول: يرتبط بالطبيعيات كالحركة، والتغير، والمكان، والزمان، والخلاء...إلخ

الوجه الثاني: يرتبط ميتافيزيقيًا بالكون ونشأته، وخلود النفس، والسببيه أو العلية، ومشكلة حدوث العالم وقدمه.

الوجه الثالث: يرتبط بدراسة الأفلاك، وحركة الكواكب، والأدوار، والأكوار، والقرانات وعلم الفلك [١].

لقد عقد إخوان الصفا وخلان الوفا فصلاً عن ماهية الزمان من أقاويل العلماء، وأوضحوا فيه تصور الزمان عند الجمهور من الناس (التصور العامي للزمان)، وربطوا الزمان بحركات الفلك، وذكروا نُفاة الزمان، وأجزاء الزمان، وقسموا اليوم إلى ساعات، والساعات إلى أجزاء (ثوان)، وربطوا كل ذلك باستدارة الأرض وحركات النجوم، والكواكب، والأفلاك. وهنا يقول إخوان الصفا في رسائلهم: " أما الزمان عند جمهور الناس فهو مرور السنين والشهور والأيام والساعات " [٢]، وبالتالي الدقائق والثواني، وهذا ما نجده أيضًا عند الفيلسوف الإسلامي أبو البركات البغدادي كتصور عامي للزمان، وفي نص آخر يذكر إخوان الصفا أيضًا كل ما قيل عن الزمان: "...وقد قيل إنه عدد حركات الفلك بالتكرار، وقد قيل إنه مدة يعدها حركات الفلك، وقد يظن كثير من الناس أن الزمان ليس بموجود أصلاً، إذا اعتبر بهذا الوجه..."[٣]، أي أن هذا التعريف في نظر إخوان الصفا يجعل الزمان غير موجود أصلاً، أي نفي الزمان، ويعارض إخوان الصفا فيما بعد أصحاب نُفاة الزمان، على اعتبار أن هناك وجهًا آخر لاعتبار الزمان، ولتحليل النص الهام الوارد بهذا الفصل، ولكن كيف يتصور البعض أن الزمان ليس بموجود بهذا الوجه ؟ يقول إخوان الصفا إن السبب في

- Massignen (L): Encyclopedie de L'Islam, Vol 2, Paris- Art Ikhwan – al-Safa. 1913
- .....: Le Lexique Teshnique de La Mystique musalmene, Paris, 1922

انظر أيضًا: علي سامي النشار – الذي يقطع بذلك ويؤيد هذا الرأي أستاذنا أحمد صبحي، محمد علي أبو ريان، عاطف العراقي – وغيرهم – انظر في ذلك: نشأة الفكر الفلسفي – ج٢ – دار المعارف – الطبعة الثالثة – إسكندرية ١٩٦٥ –أحمد صبحي – نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية – تحليل فلسفي للعقيدة – دار المعارف – مصر – الطبعة الأولى ١٩٦٩، محمد علي أبو ريان – الفلسفة أصولها ومبادئها – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – الطبعة الأولى ١٩٧٨، عاطف العراقي – الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا– دار المعارف – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٨٣.

١- إخوان الصفا – الرسائل – أربعة أجزاء مقدمة د. طه حسين – تصحيح خير الدين الزركلي – دار صادر – بيروت لبنان – ١٩٥٧ – جزء١ – ص١١٢.

٢- إخوان الصفا: الرسائل ج٢ – ص١٤.

٣- المصدر نفسه – ج٢ – ص١٥.

ذلك يعود إلى أجزاء الزمان، وتقسيم السنين، ونرى ذلك واضحًا في قولهم إن أصول أجزاء الزمان السنون، والسنون منها ما قد مضى، ومنها ما لم يجيء بعد، وليس الموجود منها إلا سنة واحدة، وهذه السنة أيضًا تنقسم إلى شهور، منها ما قد مضى ومنها ما لم يجيء بعد، وليس الموجود منها إلا شهرًا واحدًا (ثلاثون يومًا)، وهذا الشهر منه أيام قد مضت، وأيام لم تجيء بعد، وليس الموجود منها إلا يومًا واحدًا (أربع وعشرون ساعة)، وهذا اليوم ساعات منها ما قد مضت، ومنها مالم تجيء بعد وليس الموجود منها إلا ساعة واحدة (ستين دقيقة)، وهذه الساعة تنقسم إلى أجزاء (دقائق وثوان)، منها ما قد مضى وآخر ما لم يجيء بعد، فبهذا الاعتبار ليس للزمان وجودًا أصلاً، وهذا هو **الوجه الأول** الذي يذهب إليه اصحاب نُفاة الزمان.

أما **الوجه الآخر** والذي يذهب إلى وجود الزمان، فيقول إخوان الصفا إن هؤلاء إذا اعتبروا ما يأتي جيدًا، فالزمان موجود أبدًا، وذلك إن الزمان كل يوم وليلة، أربع وعشرون ساعة، وهي موجودة في أربع وعشرون بقعة (مكان) من استدارة الأرض، وتكون حولها دائمًا، ومن هنا نجد أن الزمان مرتبط بالحركة والمكان، وهذا تأثير أرسطي بلا شك، فواضح التأثر والتأثير ما بين الفكر اليوناني والفكر الإسلامي، وتصور الزمان حتى عند ابن سينا الفيلسوف المسلم الذي تأثر بإخوان الصفا ... فماذا عن أبي حيان التوحيدي؟.

عاش **أبو حيان التوحيدي** في القرن الرابع الهجري كله حيث كان معمرًا، وأطلق عليه أديب الفلاسفة، وفيلسوف الأدباء، وعاش في زمن ظهور جماعة إخوان الصفا نفسه والبعض قال إنه منهم، ولكننا نفينا هذا في بعض كتاباتنا.

وإذا أخذنا مختارات فلسفية متفرقة من مقابسات التوحيدي(•) تتعلق بفكرة الزمان وتصوراته، ومقارباته، وتأويلاته، فستجد المقابسة الخامسة بعنوان: " في الأمانة والصدق " وسبب شرف الناس على بعضهم البعض، وشرف الأزمان بعضها على بعض ... إلخ، سنلاحظ أن أبا حيان التوحيدي يبدأ مقابساته دائمًا ببعض العبارات التي تذكرنا بما جاء في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا الذين يستهلون بها رسائلهم من أمثلة: سمعت كذا ... رأيت

(•) أبو حيان التوحيدي: المقابسات – الطبعة الحجرية – على يد ميرزا حسين الشيرازي (دون تحقيق) – طبعة الهند – سنة ١٣٠٦ هـ – والكتاب يتكون من ١٠٦ مقابسة وتليها رسالة تسمى بالوصايا الذهبية للفيلسوف الرياضي فيثاغورث – وقد قمنا بدراسة تحقيقية لبعض المختارات الفلسفية من المقابسات مثل المقابسة رقم (٤) والمقابسة رقم (٥)– انظر في ذلك صابر أبا زيد – أبو حيان التوحيدي " دراسة حياته وأدبه وفكره " – مركز الدلتا للطباعة – سبورتنج – الطبعة الأولى ١٩٩٨ – ص١٩٧/٢٠١.

كذا ... تذكرت كذا ... قلت لفلان ... والحمد لله وحده... أدام الله الصنع الجميل ... وعبارات من هذا القبيل، ويقول التوحيدي في المقابسة الخامسة: " قلت لأبي بكر القومسي وكان كبير الأوائل [١] بأي معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان، وهذا المكان أفضل من هذا المكان، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان ؟ "

فقال: "عندما يشعر بإفاضة الزمان إلى سعادة شائعة، وعزٍ غامر، وبركة فائضة، وخصب عام، وشريعة مقبولة، وخيرات معقولة، ومكارم مؤثرة من جهة شكل الفلك[٢] بما تقتضيه بعض أدواره، وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة والأعمال المنيفة، فأما الزمان الذي هو رسم الفلك بحركته الخاصة، فليس فيه جزء أشرف من جزء، وكذلك المكان لأنه رديف الزمان، ولا سبيل في مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق إلا بالأمانة التي هي شاملة للعالم غالبة عليه من محيطه إلى مركزه، أما الإنسان فلا شرف له أيضًا على إنسان آخر من جهة حدَّه الذي هو الحياة والنطق والموت، لأن الحد في كل أحد واحد، فإذن لا شرف من هذا الوجود، فإن اعتبرت بعد هذا فعل هذا وفعل ذاك من جهة الاختيار، والإيثار، والاكتساب، والاجتلاب، فذلك يقف على الأشرف، فالأشرف، بحسب ما يوجد منظومًا في نفسه نافعًا لغيره واقعًا موقعه الأخص منه"[٣].

أي أن التوحيدي يقرر أن كل الناس من جهة الحد متساوون، فالكل يحيّا، والكل يتكلم، والكل يموت، فلا شرف لإنسان على إنسان من هذه الجهة، ولكن الشرف يأتي من اختيار الإنسان للنافع، واكتسابه للخبرات المفيدة، واجتلابه للخير والعمل الصالح. أيضًا فيما يختص بالزمان والمكان، فلقد ربط التوحيدي حركة الأفلاك والكواكب، ودوران النجوم حول مداراتها بالنفس، ولعله يقترب هنا من كلام إخوان الصفا في السعد والنُحوس، أي إن الإنسان – كيف يكون سعيدًا في زمان معين ومكان معين، ومنحوسًا في زمان آخر ومكان آخر؟.

مما يدل على أن التوحيدي درس علم التنجيم والزيجات والفلك والنجوم وعلاقة كل ذلك بمزاج الإنسان بين السعادة والشقاوة، أما فيما يختص بالعلوم فنورد التساؤل الذي طرحه أبو محمد الأندلسي النحوي للوزير (عيسى بن علي بن عيسى) يومًا وأبا حيان عنده فقال: لم قال صاحب كل علم ليس في الدنيا اشرف من علمي الذي انظر فيه؟

١– وفي مقابسة أخرى يقول عنه: وكان كبير الطبقة في الفلسفة، وقد لزم أستاذه يحيى بن عدي زمنًا، وكتب لنصر الدولة، وكان حلو الكتابة مقبول الجملة " مقابسة رقم ٦ ص١٤ ".

٢– يربط التوحيدي حركات الفلك بالزمان كما فعل إخوان الصفا من قبل.

٣– التوحيدي: المقابسات – مقابسة رقم (٥) ص١٣.

وهكذا نجد الطبيب، والمنجم، والنحوي، والفقيه، والمتكلم، والمهندس، والكاتب، والشاعر، ومن يقرأ الرسالة العاشرة (من النفسيات العقليات) في الحدود والرسوم لإخوان الصفا وخلان الوفا [١]، ويقرأ المقابسة رقم (٩١) من مقابسات التوحيدي، لا يجد أي تباعد ولا تنافر، بل يجد كل تشابه وائتلاف، مما يؤكد لنا أنه اتصل بجماعة إخوان الصفا وخلان الوفا وتأثر بهم [٢].

... وفي أسئلة المقابسات التوحيدية في الحدود والرسوم تصادف أن تم سؤاله عن المكان والزمان والوقت ... فماذا قال ؟.

المكان: هو حيث التقى الآفاقان: المحِيط والمُحاط به، وأيضًا هو ما بين سطح الجسم الحاوي وانطباقه على الجسم المحوي [•].

الزمان: مدة تعدها الحركة ثابتة الأجزاء (الزمان مقياس الحركة).

الوقت: هو بقاء الزمان المفروض للعمل[٣] (يستخدمه الصوفية أكثر من الفلاسفة).

... ومن اهتمامات التوحيدي أيضًا – الكلام في النحو وبالذات في الظرف (الزمان والمكان)، وقد اخترنا المقابسة (٢٢) من مقابساته لنرى ماذا يقول؟.

يقول: الظرف الزماني ألطف من الظرف المكاني، والمكاني أكثف من الظرف الزماني، وكأن المكان من قبيل الحث، والزمان من قبيل النفس، وكان الزمان من حد المحيط، والمكان من حد المركز، فوجب لهذا أن يكون تصرف الألطف أكثر من تصرف الأكثف، وبحسب تصرفه يكون أسماء أحواله في تصرفه أكثر، والزمان منسوب إلى حركات الفلك، فجوهره شريف، والمكان من جوهر المحيط، فجوهرة محطوط، والفلك أقرب من الأمور العالية، فكذلك مرسومه الذي هو الزمان.

قال: ومما يشهد أن الزمان ألطف إنك تقول إنها زمان حاضر وزمان ماضٍ وزمان مستقبل، هذا بالنظر الأول، وقد أحسّ به كل الناس، وهو يزيد بالمنطق على هذه القسمة زيادة بيّنة، ومن أجل تصرف الزمان في الوجوه الكثيرة استخرج يحيى بن عدي المنطقي من

١– إخوان الصفا: الرسائل – دار صادر – بيروت – ١٩٥٧ – المجلد الثالث – ص٣٨٥

٢– صابر ابا زيد: أبو حيان التوحيدي – مرجع سابق – ص٢١٠ .

•– نلاحظ أن هذا التعريف أرسطي بالحرف، والمكان عند إخوان الصفا هو كل موضع تمكن فيه المتمكن وهو نهاية الجسم والتعريفان متقاربان .

٣– التوحيدي: المقابسات – مصدر سابق – المقابسة الخامسة – ص١٤ .

قول القائل القائم غير القاعد وجوهًا تزيد على عشرين ألف وجه بألاف، وسألته في ذلك حاضره ثم قال: ومما يزيد لطافة الزمان وضوحًا أن الزمان الواحد يجري أكثر من واحد إلى مالا آخر لهما، والمكان الواحد متى شغل بالواحد عجز عن الثاني.

ثم قال: وأي نظر أشرف من نظر الفيلسوف الذي يرتقي من السُفل فيجول في الوسائط، ويبلغ إلى العلو، وربما انحدر من العلو، فخرق بمدة الحُجب كلها مبينًا عنها وعن جملتها وتفصيلها بمعرفة موزونة من العقل، وروية مؤيدة بالبصيرة، وحقائق بالعدل موزونة، وتصفُّح بالغًا إلى الحد الأقصى بلا ظرف، ولا ترتب، ولا شك، ولا مرية، بل علم ثابت، ومعرفة راسخة، وبيان جليّ، وشاهد قائم، وبرهان موجود.

وللمشغوف بالحكمة في هذه المواضع مواد، ومسرح، ومرمى، ومفتح وذلك لأن الإلهية وعلائقها متشاكلة متناسبة، ومواهبها متقاربة ومتواصلة لكشف الغطاء بالنظر والفحص بأن منها ما يبهر كشعاع الشمس[1].

وهنا نجد التوحيدي وقد تحول من الكلام في النحو وربطه بالمنطق إلى الكلام في الأمور الطبيعية والزمان والمكان من منطلق فلسفي تأويلي، لا نحوي، ولا لغوي، وهذا يدل على أنه يُعد بحق فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة.

وخلاصة الأمر إن مشكلة الزمان لم تكن مطروحة بشكلها الفلسفي، أو الذي عرفناه على أيدي اللاهوتيين، ونحن بصدد تناول الجانب الديني والزمان من خلال دراسة نصوص الأديان الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام)، ولاحظنا أن معالجة النصوص في الكتب المقدسة للأديان الثلاثة تركزت على ثلاثية العلاقة بين (الله – الزمان – العالم).

١- التوحيدي المقابسات – مصدر سابق – المقابسة (٢١) ص ٢١-٢٢.